وحدة الوجود

١ – نريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل – بصورة متوقعة – حدة المناقشة فى هذا الموضوع ، وذلك أننا بصدد « وحدة الوجود » ولسنا بصدد وحدة الموجود .

والموجود متعدد : سماء ، وأرض ، جبال ، وبحار ، أشجار وأناسى إلخ ، وهو مختلف صلابة وهشاشة ، لوناً ورائحة وطعماً ، متفاوت ثقلا وخفة إلخ .

ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين – ومنهم ابن عربى والحلاج – بوحدة الموجود . .

وماكان لمؤمن ، ولا يتأتى لمؤمن ، أن يقول بوحدة الموجود وماكان للصوفية – وهم الذروة من المؤمنين – أن يقولوا – وحاشاهم – بوحدة الموجود .

وقد تتساءل : من أين إذن أتت الفكرة الخاطئة التى يعتقدها كثير من الناس : من أن الصوفية يقولون بوحدة الموجود ؟ !

وتفسير ذلك لا عسر فيه : إن فريقاً من الفلاسفة فى الأزمنة القديمة وفى الأزمنة الحديثة يقولون بوحدة الموجود ، بمعنى أن الله – سبحانه وتعالى عن إفكهم – هو والمخلوقات شىء واحد .

قال بذلك هيراقليطس فى العهد اليونانى : والله عنده نهار وليل ، صيف وشتاء ، وفرة وقلة ، جامد وسائل ، إنه – على حد تعبيره – كالنار المعطرة ، تسمى باسم العطر الذى يفوح منها ، تقدس سبحانه وتنزه عما يقول .

والله سبحانه وتعالى ، فى رأى شلى ، فى العصور الحديثة ، هو هذه البسمة الجميلة على شفتى طفل جميل باسم ، وهو هذه النسائم العليلة التى تنعشنا ساعة الأصيل ، وهو هذه الإشراقة المتألقة بالنجم الهادى فى ظلمات الليل ، وهو هذه الورود اليانعة تنفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلة : إنه الجمال أينما وجد ؛ أيضاً – سبحانه وتعالى – القبح أينما كان : وكما يكون طفلا فيه نضرة ، وفيه وسامة ، يكون جثة ميت ، ويكون دودة تتغذى من جسد ميت ، ويكون قبراً يضم بين جدرانه هذه الجثة وهذا الدود ، أستغفرك ربى وأتوب إليك .

ولوحدة الوجود – بمعنى وحدة الموجود – أنصار فى كل زمان .

ولما قال الصوفية « بالوجود الواحد » شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود وفرق كبير بينهما ولكن الخصومة كثيراً ما ترضى عن التزييف وعن الكذب فى سبيل الوصول إلى هدم الخصم ، والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون .

وشىء آخر فى غاية الأهمية كان له أثر كبير فى الخطأ فى فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد ، وهو أن الإمام الأشعرى رضى الله عنه ، رأى فى فلسفته الكلامية ، أن الوجود هو عين الموجود ، ولم يوافقه الصوفية على هذه الفكرة الفلسفية ، ولم يوافقه الكثير من مفكرى الإسلام وفلاسفته على رأيه . وهو رأى فلسفى يخطئ فيه أبو الحسن الأشعرى أو يصيب ، وما مثله فى آرائه الفلسفية إلا مثل غيره فى هذا الميدان يخطئ تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه : أن الوجود غير الموجود ، وأنه ما به يكون وجود الموجود ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم فكرتهم فى ضوء رأى الأشعرى ، دون أن يراعوا مذهبهم ، ولا رأيهم ففسروا قولهم : بالوجود الواحد

على أنه قول بالموجود الواحد .

وهذا التفسير بهذه الطريقة يسحب الثقة فى آراء هؤلاء الخصوم .

وأمر ثالث يجب ألا نعيره أدنى التفات ؛ لأنه أتفه – فى منطق البحث – من أن نعيره التفاتاً ، وهو هذه الكلمات التى تناثرت هنا وهناك ، مخترعة ملفقة ، مزيفة ، ضالة ، فى معناها ، تافهة فى قيمتها الفلسفية ، غريبة على الجو الإسلامى ، تنادى بصورتها ومعناها : أنها اخترعت تضليلا وافتياتاً .

إنها هذه الكلمات التى يعزونها إلى الحلاج ، رضوان الله عليه ، أو إلى غيره ، لا توجد فى كتاب من كتبه ، ولم يخطها قلمه .. لقد اخترعوها اختراعاً ، ثم وضعوها أساساً تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال .

ويكفى أن يتشبث بها إنسان فيكون فى منطق البحث غير أهل للثقة .

٢ – الوجود الواحد : وهل فى الوجود الواحد من شك ؟ إنه وجود الله المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق الذى أعطى ومنح الوجود لكل كائن وليس لكائن غيره ، سبحانه الوجود من نفسه إنه سبحانه الخالق وهو البارئ وهو المصور : هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء .

ومن بعض معانى هذا التصوير قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

وصلة الله بالإنسان إذن : هى أنه سبحانه ، يمنحه الوجود الذى يريده له فى كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، فتشكل حياته فى كل لحظة بصورة أمده الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن : إنما هى على هذا النحو : إنه سبحانه مثلا : ﴿ يمسك السموات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ إنه يمسكها وجوداً ، ويمسكها تدبيراً ، ويمسكها تماسكا وتناسقاً . . إنه يمسك فيهما الكيف والكم . وإذا ما سحب إمداده عنهما تلاشتا كمًّا وكيفاً .

إن الله سبحانه وتعالى : محيط بالكون ، مهيمن عليه ، قيوم السموات والأرض ، قائم على كل نفس بما كسبت . وقائم على كل ذرة من كل خلية ، وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر بحيث لا يعزب عن هيمنته وعن قيوميته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

هذه القيومية : أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها فى استفاضة مستفيضة ليهز الإنسان هزة عنيفة تجعله لا يخلد إلى الأرض ولا يتبع هواه ، وإنما يرتفع ببصره ويستشرف بكيانه إلى الملأ الأعلى مستخلصاً نفسه من عبودية المادة : ليوحد الله سبحانه وتعالى فى عبودية خالصة له . وفى إخلاص لا يشوبه شرك من هوى ، أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن فى هذا الصدد :

إن الله سبحانه وتعالى : يوجه نظرنا فى سورة الواقعة إلى مسائل نحن عنها فى العادة غافلون .

﴿ أفرأيتم ما تمنون ؟ ! أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ! . . .

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ؟ ! أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ ﴾ ! . . .

﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ ! أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ ! . . .

﴿ أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ ؟ . . .

وعلى العكس من ذلك : لو شاء الله لما خلق هذا الفرد ، ولجعل الزرع حطاماً ، ولما أنزل الماء من المزن ، ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه ، بيده الأمر سلباً وإيجاباً ، وبيده أمر الخلق إيجاداً وإعداماً . . .

أرأيت إلى هذه الرمية التى ترميها : إنك ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

أرأيت إلى الانتصار فى الجهاد ؟ إن هذا الانتصار من عند الله ؛ فأما القتلى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » .

ورزق الإنسان هذا وطعامه :

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنّا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضبا ، وزيتوناً ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبّا ، متاعا لكم ولأنعامكم . . . ﴾

٣ – هذه الهيمنة ، وهذه القيومية ، يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتاً ، إنهم يمرون بها مرور الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل : إن الله سبحانه وتعالى ، لا يخل من شعورهم درجة أيا كانت ، وهمهم كل همهم مصبحين ممسين ، إنما هو ملء البطن ، أو كنز الذهب والفضة ، أو النزاع على جاه ، أو العمل لتثبيت سلطان : إنهم يمرون بآيات الله فلا يشهدونها . وتحيط بهم آثاره ، فلا ينظرون إليها ، وتغمرهم نعماؤه وآلاؤه فلا يوجههم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر ، إن الله سبحانه وتعالى : لا يخل فى قلوبهم ولا فى تفكيرهم ، ولا فى بيئتهم ، ولا فى حياتهم ، قليلا ولا كثيراً . .

والطرف الآخر المقابل لهذا : هو هؤلاء الذين انغمسوا حقا فى محيط الإيمان : سبحوا فى بحارها ، واستنشقوا نسائمها الندية . وغمرهم لألاؤها

وضياؤها ، لقد بدءوا بحمد الله وشكره على نعمائه وآلائه التى تحيط بهم من جميع أقطارهم ، فزادهم الله نعما وآلاء

﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ... ﴾ .

لقد اتقوا الله حق تقاته فعلمهم الله :

لقد اكتفوا بالله هادياً ونصيراً ، فهداهم الله إلى صراطه المستقيم ، ونصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم ، وأخذوا شيئاً فشيئاً ، يحاولون تحقيق التوحيد : قولا ، وعقيدة ، وتذوقاً ، وتحقيقاً ، أخذوا يرون فى « أشهد ألا إله إلا الله » معانى لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدأ معنى الشرك يتضح لهم فى صورة لا تخطر على بال اللاهين ، الذين شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، وبدءوا يحطمون الشرك : يحطمون أصنامه وأوثانه . من النفس ، والهوى والشيطان ، ومن الغرائز الحيوانية ، والغرائز الإنسانية . وأنهار الشرك حتى من همسات الفؤاد : لقد انهار الشرك الواضح ، وانهار الشرك الخفى ، وثبت فى أذواقهم واستقر فى أحوالهم ومقاماتهم : أن « لا إله إلا الله » وأنه « أينما تولوا فثم وجه الله » وأينما كانوا فالله معهم ، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، وهو أقرب إليهم من جلسائهم ومعاشريهم : إنه يغمر كيانهم : فلا يرون غيره سبحانه . لا يرون غيره ، قيوم السموات والأرض ، ولا يرون غيره مصرفا لليسير من الأمور ، وللعظيم منها ، ولا يرون غيره مالكا للملك : يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين ، وأصبح الله فى بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفى قلبهم من قبل ذلك ومن بعده : يشغله كله فلا يدع فيه مكاناً للأغيار .

٤ – وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد هذا القطيع من البشر إلى الله تعالى : أخذوا فى محاولة جاهدة مستمرة – لانتزاع الإنسان من الإخلاد إلى المادة ليتطلع إلى السماء :

لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس إلى الله ، عن طريق آلائه التى تغمرهم وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شىء خلقه ، سبحانه .

أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى : فى الزهرة تفتح ، وفى الزرع ينبت متجها إلى السماء ، وفى الشمس تشرق ، وفى القمر يتألق ، وفى مواقع النجوم ومداراتها . . .

وفى كل هذا الإبداع السارى فى الكون !

أخذوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة :

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور .

الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟

ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسيرا ﴾ .

وكانت تعبيراتهم تعبيرات متذوقين ، وليست التعبيرات الجافة لعلماء الكلام أو الفلاسفة ، وهم – فى تعبيراتهم يشرحون : أن الله سبحانه وتعالى : الممد الوجود لكل موجود : إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد الماشى بالمشى ، والمتحرك بالحركة . . .

إنه – على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة : الذى يقطع ، وليست السكين هى التى تقطع ، وهو الذى يحرق ، وليست النار هى التى تحرق ، وهو

الذى ،حينما يريد ، يقول للنار كونى برداً وسلاماً ، فتكون برداً وسلاما .

ومهما عبر الصوفية ، فى هذا الميدان ، عن الوجود الواحد ، فقالوا فى ذلك ، وزعم الناس أنهم أسرفوا ، واشتطوا ، فإنهم : سوف لا يبلغون المدى الذى بلغته تلك الآية الكريمة التى تمثل فى روعة رائعة ، الهيمنة المهيمنة ، والاستغراق القاهر ، والجلال الشامل والتى لا تعنى وحدة متحدة ولا اتحاداً مطابقاً بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود والآية هى :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ .

وهذه الآيات القرآنية التى ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعاً إلى الشعور بقيومية الله سبحانه وتعالى ، مهيمنة ، وهيمنته مسيطرة ، وإلى الشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للإنسان أن يفر إلى الله فى كل أمر من أموره ، وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن :

لا إله إلا الله » .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك ، إنهم مهتدون بهدى القرآن والسنة ، يريدون للإنسان أن يكون ربانيا ، فإذا ما استمر الكثير من الناس يخلدون إلى الأرض ، وينظرون دائماً إلى أسفل ؛ فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله ، خير أداء .

أما إذا لم يكتف بعض الأفراد بالإخلاد إلى الأرض وبالنظر إلى أسفل ، وإنما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ، ويوجههم إلى الله ، تعالى فهؤلاء : إنما يحاربون الله ورسوله ، وجزاؤهم معروف .

٥ – وقد تتساءل : فيم إذن حوكم الحلاج وقضى عليه بالقتل ! ؟

إن أمر هذه القضية : قضية الحلاج : معروف [illegible] ، وما كان سرًّا فى يوم من الأيام .

لقد كان الحلاج قوة جارفة ، كان مركزاً للجاذبية لا يضارع ، يلتف حوله الناس أينما حل ، ويسيرون حوله أينما ارتحل .

وكان ككل صوفى - : يحب آل البيت لأنه كان يحب الرسول ﷺ ، وكان آل البيت إذ ذاك يطمحون فى أن تكون الدولة لهم ، وما كان بنو العباس يطمئنون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت ، نسل رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه .

ومادام الحلاج دعاية قوية تسير فى كل مكان ، وتتجه إلى كل بلد ، فيجب - حفاظاً على أمن الدولة وتحصيناً لاستقرارها - أن ينكل بالحلاج .

وما كان مقتل الحلاج دينيًّا قط كلا ، وإنما كان سياسيًّا بحتاً . ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا ، أن يأتوا بشهود الزور ، وأن يعدوا القضاة بالمال والترقية ، وأن ينفذوا أهواءهم . . .

فكان ما كان من قضية ومن قتل . . . والدين من كل ذلك براء والألفاظ التى ينسبونها للحلاج ليست فى كتاب من كتبه ، وكتبه - وبعضها موجود - لا تسند خصومه ولا تؤيدهم .

هذا ما كان من أمر الحلاج . وبقيت كلمة .

إن المنطق الصحيح : ألا يفتى المهندس فى أبحاث الأطباء ، وألا يحكم الأديب باعتباره أديباً ، فى أعمال المهندسين . . .

ومن العدالة - على هذا الوضع - : ألا يحكم على هذه القمم الشامخة ابن عربى ، الحلاج ، ابن الفارض ، من لم يبلغ مداهم أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : إن فلانا ، ينتقد ابن عربى فى المجلات ، فقال : رضوان الله عليه ، وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد ، إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع ، وليس من حقها أن تتحدث فيما تفعله السباع ، ومنطقها دائماً منطق الخنافس .

أما الإمام الشافعى - رضوان الله عليه - فإنه يقول عن خصوم سيدنا محيى الدين : « إن حكمهم حكم ناموسة نفخت على جبل تريد إزالته من مكانه وتذهب الريح بأم من الناموس » وتبقى الجبال شوامخ راسيات ، بها تثبت الأرض ، وبها يحفظ ميزان الدنيا » اهـ .

والرأى الذى لا يتأتى غيره من المنصف ، الرأى الحق ، هو ما قاله الإمام الشعرانى عن الصوفية عامة ، وعن سيدنا محيى الدين خاصة : « ولعمرى » إن عباد الأوثان لم يجرءوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله بل قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال فى حقهم ، رضوان الله عليهم » اهـ .

فلا بد أن يبلغ الإنسان المستوى ، أو يقارب المستوى ، وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه : رضى الله عن سيدنا محيى الدين ، ورضى الله عن الحلاج ، وعن ابن الفارض ، ونفعنا بهم ، وبكتبهم ، هذا وبالله التوفيق .